علاقة المضمون بانحسار
القراءة في الوطن العربي

كثيراً ما حدّد الباحثون الأسباب العامة لتراجع القراءة في الوطن العربي، وقد باتت معروفة (النسبة العالية للأمية، ضعف القدرة الشرائية، التلفاز وفضائياته، وسائل التواصل الاجتماعي واستخدام الانترنت، الأقراص المدمَجة والألعاب الإلكترونية، إلخ...)، ونادراً ما تحدثوا عن عَلاقة مضمون الكتاب العربي بانحسار القراءة، كأن المادة المقدمة من المؤلف أرفع من أن تكون هي الأخرى سبباً مهماً من أسباب انسحاب القارئ إلى البحث عن المعرفة في وسائل أخرى غير الكتاب.

أود أن أتوقف عند النقاط التالية:

أولاً، يمكن أن نطرح هنا السؤال: إذا كان الجيل الجديد يطمح إلى متابعة ما تجود به ثورة التكنولوجيا فإلى أي حد تتماشى مضامين الكتاب العربي مع هذا التطور الجديد؟ ولا أقصد هنا أن يكون المؤلِّف عالِماً في التكنولوجيا الجديدة، إنما نتطلع إلى مخاطبة الجيل الجديد انطلاقاً من وعي عصر جديد، والكتابة بأسلوب حياة جديدة، وأفكار جديدة، بالإضافة إلى مراعاة الطموحات المستحدثة لدى هذا الجيل. وحتى نكون أكثر دقة، فثورة التكنولوجيا لا تخص جيلاً واحداً وحسب، إنما تشمل جيلين على الأقل، وهذا يؤكد أهمية أن يكون الكتاب داخل العصر، من خلال خطابه وأفكاره وأسلوبه وتقنياته.

ثانياً، لا أبالغ إذا قلت إننا في الصحافة الورقية نكتب لجيل يكاد ينقرض، وهذا ما قد يشعر به عدد كبير من الكتّاب العرب، الذين لا يزالون يعيشون العصر السابق، ويكتبون وفي مخيلتهم أن الشباب لا يقرؤونهم. ولا شك في أن الأزمة التي يشتد عصفها يوماً بعد يوم، على مستوى الصحيفة الورقية، تسحب نفسها على قراءة الكتاب الورقي، فالصحيفة والكتاب شريكان في عين القارئ. وقد تعلن أزمة الصحيفة عن نفسها بشكل أكثر وضوحاً وبروزاً، لأن الصحيفة في قلب الحياة الإعلامية، بينما يبقى صوت الكتاب أميلَ إلى الصمت أو الموت البطيء. لهذا تداول الإعلام بأخبار متواترة أسماء صحف عالمية وعربية كثيرة أَقفلت، وأخرى تحولت إلى الصيغة الإلكترونية، ولم يَتداول بالمستوى نفسه أزمة الكتاب. وإذا ضممتُ هنا الصحيفة مع الكتاب، فلأن التداخل في المضامين حاضر، فالعديد من الكتّاب الصحافيين مؤلفو كتب، والعكس صحيح، كما أن الصحيفة والكتاب هما العنوانان الأساسيان في النشاط القرائي. ومثلما باتت جلسة قراءة الصحيفة في جو رومنسي مع قهوة الصباح تقليداً قديماً، كذلك لم تعد قراءة كتاب وتأمُّلُ أفكاره وسبرُ أغواره سلوكاً عاماً، خصوصاً بالنسبة إلى الشباب.

ثالثاً، يظن بعض الكتّاب أن أسلوب تقديم المعارف بالتحليل المطول المضني لا يزال يعبر عن عمق الكتاب وصاحبه، وهو المطلوب، في حين بات الشباب أكثر ميلاً إلى خطف المعلومة بسرعة، وإذا لم يلبِّ الكِتاب طلبهم ذهبوا إلى وسيلة أخرى. ما أردت أن أقوله إن الشباب يجافون المضمون التقليدي، حتى لو امتاز بالكثير من الأهمية، وكان صاحبه من كبار الأسماء.

رابعاً، يستسهل بعض الكتّاب التأليف السريع للكتب أو التجميع، بهدف تسجيل رقم قياسي، كما يتساهل ناشرون كثر في طباعة كتب متدنية القيمة وأحياناً ساقطة، تستهلك الكثير من الشجر الأخضر، وترهق الموزِّع، ولا مكان مناسباً لها سوى سلةِ المهملات، وهذا شائع أكثر في مجال الشعر، حيث يسعى كثيرون إلى نجومية أبعد عنهم من نجوم السماء، ومع ذلك يصرون على إنتاج المزيد، كونَهم يستطيعون تغطية التكاليف، وهذا من الأسباب التي تجعل القارئ مرتاباً، وتُعمم موقف النفور والخوف الدائم من أن يكون الكتاب لا يستحق سعره أو جهد قراءته، حتى بات البعض لا يغامرون في شراء كتاب إلا بعد أن يتأكدوا من صديق أو ناقد أن الكِتاب يستحق القراءة. وما دمنا ذكرنا الشعر، لا بد من أن نتوقف عند جانب آخر من المشكلة، وهي أن مبالغة بعض الشعراء في الغموض والتعقيد والتقعير تُجفل القارئ، وتضيّق الطلب على الكتاب الشعري إلى حد بعيد، ولعل هاتين المشكلتين في الشعر هما اللتان عزّزتا موقع الرواية.

خامساً، يؤثِّر المنطق التجاري لأصحاب دور النشر أحياناً في اهتزاز مضمون الكتاب، إذ يتهافتون مثلاً على نجم تلفزيوني أو سينمائي أو رياضي أو سياسي، ويقنعونه بتأليف كتاب يحقق كسباً مالياً، في حين قد لا يكون هذا النجم نجماً في التأليف. أو ينجرف أصحاب الدور مع الفوران الاجتماعي، أو القضايا المثيرة (البروباغاندا)، فيلجؤون إلى مضامين سريعة ملفقة، بهدف مواكبة الحدث الجلل، فيكون ذلك سبباً في مواقف سلبية من القراء. بل إن تركيز الدُّور على ناحية ثقافية معينة تحقق الربح، تجعلهم يتسببون بخلل في توازن ثقافة المجتمع، كأن ينسحب الناشر إلى التركيز على الكتب الدينية، تاركاً القراء ذوي الميول الثقافية الأخرى، الذين سرعان ما يبحثون عن ضالتهم في وسيلة أخرى غير الكتاب.

سادساً، إن شكوى المؤلف العربي من أمور كثيرة، تساهم أيضاً في قلة تركيزه على الكتابة وإنتاج المؤلفات، كمثل شعوره باليأس والقرف من وضع سياسي أو اجتماعي، أو احتجاجِهِ على سوء تعامل الناشر معه، أو شعورِهِ بأن مهنة الكتابة أو السلعة التي يساهم في إنتاجها لا تؤمِّن له عيشاً كريماً، ولا تسمن أو تغني من جوع، فاحتضان الكتّاب من قبل الحكومات العربية، وتخصيص مرتبات لهم، باتا ضرورة ملحة كي يستقيم عملهم وإنتاجهم.... إن هذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة، شخصية وموضوعية، تدفع المؤلف إلى أن يبحث عن مهنة أخرى مع التأليف، يعيش منها. وبذلك يخسر الكثير من الوقت الذي نفترض أنه يساهم في تحصين معارفه، ويعطي قيمة للمضمون. ألا يؤدي ذلك إلى اهتزاز ثقة القارئ بالمؤلِّف والمؤلَّف!

سابعاً، قد تكون للترجمة أسباب طبيعية تتمثل بحاجتنا إلى الآخر دائماً، لكن ضعف المضمون المحلي وعدمَ مواكبته لتطورات العصر، عندما يحصلان يقلصان قدرة الكاتب العربي على منافسة كتّاب الغرب المترجَمين إلى العربية، ما يجعل الناشر يميل أكثر إلى الكِتاب المترجم في حقول كثيرة، ويكون ذلك على حساب هوية الثقافة الوطنية والقومية التي كلما ضعفت ضعف انتماء القارئ إليها، ووجد نفسه في مكان آخر.

ثامناً، تنبغي الإشارة إلى أن الكثير من الكتب الجيدة تبقى في عتمة التخزين، لا لسبب فيها، إنما لأنها لم تنل نصيبها من الإعلان فقط، ففن الإعلان اليوم ضرورة ملحة للتسويق، وقد باتت الفيديوهات القصيرة التي توزع عبر الإنترنت ووسائط التواصل الاجتماعي خيرَ وسيلة لترويج أي سلعة، ومنها الكِتاب، فالكتاب الجيد يستحق أن تُقدَّم له هذه التضحية من قبل الموزّع، ما يؤدي

إلى انتشار أكبر للكتاب، وبالتالي يصل إلى مروحة أوسع من القرّاء. هذا النوع من الإعلان للكتاب الجيد بات شائعاً في الغرب، وهو لا يزال في بداية خجولة عندنا، مع أنه يؤسس لعلاقة أوسع بالقارئ الشاب على وجه الخصوص. وعليه، يمكن توزيع فيديوهات قصيرة تتحدث عن الكتاب وتبرز أهميته، بل أكثر من ذلك يمكن المغامرة بإخراج فيلم قصير غير باهظ التكاليف، يوزع عبر الوسائط المتوفرة، ولا بأس بأن توضع جائزة لأفضل فيلم يقدمه طلاب مختصون بالدعاية والإعلان عن كتاب مهم. ولا بأس في السعي لإقناع منتجين سينمائيين بمضمون رواية مهمة، أو كِتابِ سيرة عن شخصية مهمة يحوَّل إلى فيلم، فيجني ما جنته كتب كثيرة في تاريخ السينما العالمية، وبالتالي ينعكس ذلك ازدياداً في عدد القراء الذين تشكل لهم السينما باباً وحافزاً لقراءة كتاب. كذلك يمكن الكلام على الإعلان عن الكتاب الجيد عبر نشر عينة منه في وسائط التواصل الاجتماعي، أو نشر تلخيص له كما يحصل حالياً في مواقع عالمية عدة، وقد اعتمدت مؤسسة محمد بن راشد مؤخراً هذه المبادرة تحت عنوان "كتاب في دقائق"، وهذا يتناسب مع جيل الشباب الذي يبحث في الانترنت عما يريد أن يقرأه خلال وقت قصير، بعدما بات الجلوس إلى كتاب كامل مؤلف من مئات الصفحات، بنظر الشباب، عملاً تقليدياً، لا يتناسب ومزاجهم.

تاسعاً، لا يُقلِّلَنَّ أحد من أهمية انتشار الجوائز المخصصة للكتب في الوطن العربي، التي شهدت ازدياداً ملحوظاً في العقدين الأخيرين، بل شهدت تنافساً إيجابياً لدى المساهمين فيها، وقد بدا مردودها بارزاً في تفاعل الكتّاب واهتمامهم أكثر بمضمون مؤلفاتهم، ثم إن هذه الجوائز شكلت وتشكل دليلاً للقارئ العربي، ليعرف الكِتاب الجيد فيبحث عنه ويصل إليه. صحيح أن هناك ثغرات، لكن الجوائز الكبرى عموماً موضع ثقة.

عاشراً، لإدارة المعارض دور أيضاً في الترويج للمضمون الجيد، من خلال الأنشطة التي تركز على القيمة في الكتاب، والاختيار المسؤول للكتب المستهدفة بالندوات والمحاضرات والأماسي. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن عدداً من إدارات المعارض، خصوصاً تلك التي تدعمها الوزارات المختصة، لا تبدي اهتماماً في الترويج للكتاب الجيد، فتقدم برنامجاً ثقافياً هزيلاً، لا يجذب القارئ، ولا يحفز دور النشر على التباري في تحضير كتب تستحق الاهتمام. ولا شك في أن إقامة ندوة عن الكتاب الجيد، بمشاركة نقاد بارزين، من شأنها أن تؤشِّر إلى أهمية مضمون الكتاب وتلفت نظر القارئ إليه.

حادي عشر، إن السبب الجوهري في انخفاض مستوى المضمون أن المؤلف يعيش اليوم مهمة صعبة، في ظل سطوة التكنولوجيا، وتراجع دور المثقف، بل تراجع سلطة الأفكار والفلسفة، والأهم غياب السجالات العمودية الكبرى التي سادت العالم العربي ذات زمن، جرّاء انقسام العالم بين تيارين، الرأسمالية والاشتراكية، ومدارسِهما، وقد خفتت هذه السجالات بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وبعد النكسات المتتالية التي أصابت العرب بفعل الهزائم التي مُنوا بها، من ٤٨ إلى ٦٧ إلى احتلال عاصمة لبنان عام ٨٢. وبما أننا أشرنا هنا إلى لبنان فإن داراً مثل "الطليعة" البيروتية، كانت تشهد حركة تأليف لا تهدأ، وقد رفعت في السبعينيات شعار "كل يوم كتاب"، ولم تكن مضامين الكتب للتسلية حينها، إنما شارك في تأليفها كتّاب كبار أمثال: محمد عابد الجابري وناصيف نصار وصادق جلال العظم وغالي شكري وسمير أمين وأنور عبدالملك والياس مرقص وهشام جعيط وجورج طرابيشي والياس فرح وياسين الحافظ وجورج قرم وبرهان غليون وبدر

شاكر السيَّاب وغسان كنفاني وعبدالوهاب البياتي وعمر فروخ وآخرون... ذكرت كل هؤلاء لأنهم كانوا يمثلون نهضة ثقافية، ويؤلفون في قلب السجالات الساخنة، وكان القراء يتلقفون كتبهم بقوة، وهذا ما جذب ناشرين عرباً إلى بيروت، أمثال عبد الوهاب الكيالي وخير الدين حسيب وسواهم، وقد ساهم الكتّاب والناشرون العرب في ترسيخ دور بيروت الثقافي حينها.

ثاني عشر، إن غياب الكتابة عن القضايا الكبرى، في مرحلة ما بعد النكسات، حوَّل الكثير من الكتابات، نحو ذات المؤلف التي باتت محور إصدارات كثيرة، لا سيما في الشعر والرواية، وهذا ما ضيّق الكتابة، وجعلها خاصة جداً، وخفف من ملامستها رغبةَ القارئ.

ثالثَ عشر، إذا كان توزيع الكتاب الورقي الكترونياً من شأنه أن يؤمّن إيصال الكتاب إلى عدد أكبر من القراء، متخطياً مكتبات المدن إلى الضواحي والأرياف، وبسعر إفرادي أقل للنسخة الواحدة، فإننا لم نلتفت بعد إلى أهمية البدء بالكتاب الإلكتروني، أعني التأليف الذي يأخذ بعين الاعتبار إمكانيات الوسائط الإلكترونية، ويستفيد منها في تقديم مزيد من الإغراءات التكنولوجية للقارئ الجديد.

...

كل ما سبق ذكره يؤكد أن ثمة التباساً في العلاقة بين الكاتب (صاحب المضمون) والقارئ (المتراجع) لا يمكن الهروب منه، وهذه النتيجة ليست جديدة، فجان بول سارتر الذي كان يَعتبر أن الكاتب والمتلقي شريكان في مشروع واحد، تحدث منذ زمن عن سوء العلاقة بين هذين الشريكين، وتحدث بعده Roland Barthes عن تراجع القراءة في فرنسا للسبب نفسه وأسباب أخرى. ولا نبالغ إذا قلنا إننا نشهد أحياناً حالات من السخرية من المثقف النخبوي، وكثيراً ما نجد من يغمز ويلمز الكتّاب على طقوسهم، وعلى نخبوية الكتابة، بعدما كانت النخب الثقافية زمنَ الأمبراطوريات تسخر من العامة، وليس أدلَّ على ذلك من سخرية أرسطو من الرعاع التي أودت بحياته.

هذه المشكلة علينا تداركها من خلال مؤتمرات تهدف إلى التوسع في تحليل المشكلة وإيجاد الحلول الممكنة. هي ليست بسيطة طبعاً، لكنها ليست مستعصية على الحل، لو استطعنا أن نرسم خطة حوارية متكاملة، تستكمل هذه المبادرة الكريمة، وتشارك فيها الأطراف الثلاثة (المؤلف الجدي، والناشر الذي يوازن بين الربح وتنمية المعرفة، والقارئ الشاب الطموح)، بالإضافة إلى الدعم الذي من واجب الحكومات أن تقدمه ليستمر تقدم البشرية، ومشروع "تحدي القراءة" أبرز مثل على ذلك.

أختم بالقول: ربما نكون بحاجة إلى مشروع ثقافي عربي يسعى لحل مشكلة القراءة، بل لا بأس بأن تكون لدى الحكومات العربية خططٌ ثقافية وطنية خمسية على الأقل فيكون لوجودنا معنى.